شهر رمضان ! . .

الأخ عصام العطار

قال لي صديق عزيز :

– لا تنسوا أن تكتبوا في هذا العدد عن شهر رمضان

وفكرت في نفسي .. لقد غدت الكتابة عن شهر رمضان وسواه من المناسبات والذكريات أمراً دورياً (روتينياً) لا بد منه عندما يحين موعده من السنة أو الشهر ، لأن الناس ينتظرونه في هذا الموعد ، ولأنه مما جرى به العــرف مــن زمن بعيد

ويفتح الكاتب في الغالب المراجع القديمة أو الحديثة فينقل أو يلخص أو يكرر القديم بشكل جديد حتى لا تظهــر المجلة أو الجريدة وليس فيها ما يرتبط بالمناسبة أو الذكرى ..

لقد ماتت على أيدينا هذه المناسبات والذكريات الحية الملهمة ، و لم يبق منها إلاّ أسماؤها وصــورها وأشــكالها المحنطة ..

لم تعد هذه المناسبات والذكريات تعيش بنا ومعنا ، و لم نعد نعيش بها ومعها ونعمِّق أثرها في حاضرنا ومستقبلنا

و لم يعد شهر رمضان بصيامه ، وقيامه ، واعتكافه ، وما فيه من تلاوة للقرآن ، وجود وعطاء ، وجهاد في سبيل الله عزَّ وجلّ .. لم يعد شهر رمضان يستحيل في أنفسنا إلى تجربة حية مؤثرة نحياها بقوة وعمق على سائر المستويات، وتطبع حياتنا الفردية والجماعية بطابعها الإلهي ، وتصوغ شخصيتنا كلها صياغة جديدة ، وتوجههــا إلى الموقــف الصحيح والطريق الصحيح في العمل والجهاد

وتذكرت ما كان يقوله لي ذلك الصديق قبل أن يذكِّرنا بالكتابة عن شهر رمضان .. لقد كان يقــول في جملــة كلام : (وماذا نستطيع أن نفعل ؟! نحن قلة وأعداؤنا كثرة ، نحن ضعاف وأعداؤنا أقوياء ، لم يعد لنا من أمــل ، و لم يبق لنا إلاّ أن ينصرف كل منا إلى شأنه الخاص ويدع ما سواه)

وتذكرت –في نفس الوقت– أن شهر رمضان هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن ، وكان فيه بدء الوحي ..

وتمثّلْتُ في خاطري رسول الله صلى الله عليه وسلّم في ذلك الغار المنفرد ، في ذلك القفر الرهيب ، يتلقى النـــور الإلهي ، ومكةُ والجزيرة والدنيا كلها في ظلمة الكفر والشرك والضلال ، والكفارُ يجهدون جهدهم ليطفئوا نور الله – عندما بدأ يستعلن وينتشر– بكل ما يستطيعون

وتراءى لي رسول الله صلى الله عليه وسلّم في موضعه ذاك ، وفي وضعه ذاك ، يحمل أمانة هداية الدنيا وإخراجها من الظلمات إلى النور ، ومحاربة الباطل كلِّه على كل المستويات

لقد كان وضعه صلى الله عليه وسلّم أصعب من وضعنا الآن بألوف المرات ، ولكنه لم ير نفسه أدنى من مهمته ، ولم يتردد في المضي إلى غايته ، ولم يقعدْ به أو ينحرف به عن دعوته يأسٌ ولا ترغيب ولا ترهيب ، فقد كان أكـــبر من اليأس ومن الترغيب ومن الترهيب ومن الدنيا .. وكم ردّدت الأجيال وستردِّد كلمته العظيمة الخالدة : (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللهُ أو أهلك فيه ما تركته)

تذكرت ذلك كله وتمثّلته في خاطري ، وتراءى لي من وراء القرون حياً نابضاً مؤثراً وكأنني أشهده مباشرة هذه الساعة ، فقلت في نفسي : لماذا نتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلّم أو نطلب الحديث عنه ، ولا نتعلم منـــه ، ولا نجعله أسوة حقيقية لنا –كما أمر الله عزَّ وجلَّ– إن كنا نرجو الله واليوم الآخر

لماذا لا نعيد في أنفسنا تجربة الرسول صلى الله عليه وسلّم ، وفي حياتِنا مواقفَ الرسولِ صلى الله عليه وســـلّم ، وخاصَّة في هذا الشهر الذي نزل فيه القرآن الكريم وبدأت فيه مسيرة الهدى والنور

ولا أريد أن أسترسل هنا في هذا الموضوع ، ولا أريد أن أتحدث هنا أيضاً عن رمضان ..

كلُّ ما أريده بهذه السطور التي أخطها الآن ونحن على أبواب هذا الشهر المبارك أن أدعو الطلائع الإســـلاميّة إلى كسر قيود العادة والروتين ، وإلى الخروج من حُجُبِهما التي تحول بيننا وبين الشعور الحي بهذا الشهر ، والإدراك الحيّ لما فيه ، والتفاعل الحيّ معه

لا أحب أن يمر هذا الشهر بنا كما يمر كل سنة ، وأن تكون صلتنا به صلة بالسطح والشكليات ، وأن نراه رؤية المعرفة الخارجية ، أو الذهن المجرد ، أو التاريخ المنصرم الذي انقطعت بينه وبين الحاضر الراهن والمستقبل القريـــب أو البعيد الأسباب ، وأن تتأثر فيه عاطفتنا أحياناً تأثراً وقتياً عاجزاً أو أعمىً خالياً من كل فهمٍ أو مدلولٍ أو أثرٍ حقيقي على الصعيد الفردي والجماعي

إنني أدعو الطلائع الإسلاميّة في هذا الشهر الذي أنزل فيه القرآن إلى الشعور بالقرآن الكريم وكأنه يتنـــزّل علينا من جديد ، وبأننا نحن بالذات المكلفون من الله عزَّ وجلَّ مباشرة بحمل رسالته وتنفيذ تعاليمه وإقامة حكمـــه ، وأن

يرتبط عندنا هذا الشعور ارتباطاً عضوياً لا ينفصم بالعلم والفهم والإدراك والعمل الحقيقي .. وعندها يولد بنا الجيل الإسلاميّ الجديد الذي يشعر شعوراً حقيقياً مؤرِّقاً بمسؤوليته التاريخية الحتمية الخطيرة ، والذي يكون بإيمانه وصـــلته بربِّه أكبر من الدنيا وكلِّ ما في الدنيا ، والذي يكون بوعيه وقدرته وعمله وتضحيته جديراً بالنصر الذي وعدنا به الله .. وعندها لا يمرّ بنا رمضان ونحن بعيدون عن روح رمضان ، ولا نقرأ القرآن ونحن بعيدون عن هداية القرآن والعمل بالقرآن ، ولا تمرّ بنا المناسبات والذكريات على أنها تاريخ مضى وانقضى لا تربطنا بها إلاّ الرابطة التاريخية والعاطفية البعيدة عن الواقع الحي والسلوك الفعلي ، ولا نتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلّم أو نستمع عنه دون أن نحسّ بأننا مكلفون بمثل مهمته ، مطالبون بالتأسي الصادق به في جوانب حياتنا المختلفة .. وعندها أيضاً لا نجد بيننا مـــن يحلّ في جوانبه اليأس ، أو تستولي على قلبه الهزيمة ، أو يشلّ خطاه الوهن ، أو يستسلم للطاغوت أيِّ طـــاغوت ، في أيِّ مكان من الأمكنة ، أو أيِّ وقت من الأوقات ..